

من آثار العراق

الجسر العباسي

للأستاذ ميخائيل عواد

١ - فهرس

إذا جئنا في أنحاء العراق شاهدا عددا لا يستهان به من الجسور المتنوعة الطراز، التفاوتة الحجم، تملو أنهاره ونهيرانه، بينها القديم الأثرى، وبينها الحديث المسكين؛ كما أن التاريخ يثبتنا بوجود جسور قديمة شيدت في أشهر المدن العراقية المطة على المياه، غير أن يد الزمان قد عبثت بها فجعلتها أثرا بمد عين وإلى القارىء هذا البحث في أحد الجسور القديمة في العراق، نعى به «الجسر العباسي» القائم بجوار بلدة زاخو في شمالي العراق ولقد استقصينا عددا من التصانيف العربية القديمة والحديثة، طائفة من كتب الرحالين والسياح الفرنج؛ أملا في الوقوف على ما ينير السبيل أمامنا في هذا الموضوع، غير أننا لم نعد من جميعها إلا بالزر اليسير من العلم بأمر هذا الجسر. ولعل أهم ما وقفنا عليه ما دونه الرحالة الأثرى «روسر» في كتابه عن «المباني الأثرية في شمالي ما بين النهرين» (١)

ولهذا الجسر أسماء عديدة أطلقها الناس عليه في ظروف ومناسبات مختلفة. من ذلك: الجسر العباسي، جسر العباسيات، جسر الخابور، جسر دلالى، جسر الإسكندر، جسر الحسينية ويلاحظ القارىء أن اثنتين من هذه التسميات أطلقنا عليه بالنظر إلى موقعه: «جسر الخابور» يشير إلى أنه يركب متن هذا النهر، كما أن «جسر الحسينية» يدل على أنه شيد عند بلدة الحسينية. أما سائر التسميات فقد أطلقت عليه بناء على ما شاع بين الأهلىن هناك من الروايات والأساطير التي لا تدعمها الحقائق الراهنة ولا تؤيدها المستندات التاريخية

٢ - موقعه

على نحو من ميل واحد شرق بلدة زاخو ينتصب «الجسر العباسي» فوق نهر الخابور الذي ينبع من الجبال الممتدة في جنوبي أرمينية (١)، ثم يسير متممجا بين ثنايا تلك الجبال حتى يصب في دجلة فوق قرية «فيشخابور» (٢) على نحو من ٧٥ ميلا شمالي الموصل؛ أي عند الحدود العراقية التركية. وهذا الخابور هو المعروف في المؤلفات العربية القديمة بـ «خابور

الحسنية» نسبة إلى البلدة المروقة بهذا الاسم (٣)

وقد تطرق الباحثان المستشرق (كسترنيج) في كتابه الرسوم بـ «أراضى الخلافة العباسية» إلى ذكر هذا النهر وجسره فقال: «إن هذا النهر كان يخترقه جسر حجري لا تزال بقاياه ماثلة للعيان قرب قرية حسن آغا التي ربما تمثل المدينة القديمة. إن الحسينية التي كان فيها جامع تصلى فيه الجمعة قد وصفه المقدسي (٤) بقوله إنه موقع ذو خطر» (٥)

ويبدو لنا من كلام (كسترنيج) أن الأمر قد اختلط عليه بعض الشيء، فلم يفرق بين الجسر العباسي الذي نحن بصدده، وبين جسر آخر ما زالت بعض معالمه ظاهرة للعيان، كان فيما مضى يملو الخابور ذاته، ويطلق عليه «جسر كينسنة» (٦) بينه وبين الجسر العباسي نحو من ثمانمائة متر

ولا يزال الجسر العباسي صالحا لبعض الإصلاح لمرور السابلة من فوقه؛ وقد كان فيما مضى المسلك الوحيد الذي تسلكه

(١) راجع مفصل جغرافية العراق لطف باشا الهاشمي «بغداد سنة ١٩٣٠»، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) سماها ياقوت الحموي «معجم البلدان ٣: ٩٣١» طبعة وسنغلد. «فيخابور»، وقال إنها «بليد من نواحي الموصل من ناحية جزيرة ابن عمر، لهم فيه وقائع»

(٣) معجم البلدان ٢: ٢٧٠، ٢٨٤. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية مادة «خابور» أن «هذا النهر يخترق سلاسل الجبال التي تسمى اليوم «حربال»، «في الشمال»، و«زاخا» «في الجنوب». وهذه الجبال الأخيرة أخذت اسمها من اسم مدينة «زاخو» التي كانت تعرف في العصور القديمة باسم «آزوخيس» Azochis

(٤) أحسن التقاسيم للبيشارى المقدسي «ص ١٣٩» ليدن

(٥) G. Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate. (٥) p. 93

(٦) كيبته: قرية صغيرة على خابور الحسنية أسفل زاخو بينهما مسافة نصف ميل

Conrad Preusser: Nordmesopotamische Baudenkmäler (١) Altchristlicher und Islamischer Zeit. (Leipzig, 1911, pp. 22-23).

وقد يبدو هذا الجسر للناظر ، لأول وهلة بسيط التركيب ، ضعيف القوام ، لكنه بالرغم من مظهره هذا ، عاش قرونًا طويلاً ، وشارك فيضانات الخابور - التدفقة من أعلى الجبال المحيطة بتلك البقاع ، وضيأة الخابور ذات أمواج متلاطمة مزبدة ، وهي في صراع دائم مع الصخور الصلبة التي تكون قعر النهر ، وهذا ما يسبب تيارات ودورات مائية سريعة تجعل الملاحة فيه كالمستحيلة

فوق هذه الأرض الصخرية القاسية شيد الجسر العباسي بقناطره الخمس ودعامته الراسخة

وقد تطرقت العالمة الرحالة (جرترود بيل)^(١) إلى هذا الجسر في رحلتها المعروفة « من مراد إلى مراد » ؛ لكنها قالت إنه يتألف من أربع قناطر^(٢) ، بينما هي في الواقع خمس كما أسلفنا .

٤ - تشييده :

تضاربت الروايات في أمر تشييد هذا الجسر ، وذهب الحدس والتخمين في ذلك كل مذهب ، وما ذلك إلا لعدم وجود كتابة عليه تفصح عن زمن تشييده ، أو نقوش تسعف الباحث في تقدير تاريخه ، فضلاً عن صمت المؤلفات القديمة وعدم ذكرها له . ولأهالي تلك البقاع أسطورة يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم سرت إلى بعض كتب الرحلات الأجنبية^(٣) . وخلاصتها أن هذا الجسر كان على ما يقولون قد سقط ثلاث مرات متتاليات عند محاولة تشييده ؛ حتى نفذ صبر البنائين وضاقوا ذرعاً بالأمر ، فقال رئيسهم : يا قوم إن قائمته لن تقوم ما لم يُضَحَّ في سبيله بدم بشري ، على أن تكون نحيته أول عابر طريق

وما هي إلا هنية وجيزة حتى أقبلت بنت عذراء اسمها (دلال) فساقها القدر إلى أن تكون أول من يقع عليها القرار الذي أشار به رئيس البنائين ، فاستيقنت تلك الفتاة قسراً وأدجت في الحلال بيتاً الجسر وهي حية ، وترك طرف ذراعها ذات

القوافل حيناً تقصد من الأنحاء الشمالية المختلفة ؛ أما « جسر كيسته » فلا أثر لقناطره اليوم ، لأن يد الدهر سطت عليها ، وعملت على تفويضها حجراً بعد حجر ، ولم يبق منها اليوم سوى ركائز قواعد الحجرية المفروزة في الماء

٣ - صفة

يبلغ طول الجسر العباسي ١١٤ متراً ، وعرضه ٤ أمتار و٧٠ سنتماً وهو يتقوم من خمس قناطر تتفاوت شكلاً وانساعاً ، فأكبرهن تكاد تملأ عرض الخابور بكامله هناك ؛ إذ تبلغ فتحتها ١٦ متراً ، وارتفاعها عن مستوى سطح ماء الخابور في أيام انتقاصه زهاء ١٥ متراً ، ومن هنا تتجلى لنا عظم المصاعب التي تجشمها البنائون أثناء تشييدهم هذه القنطرة الواسعة ، ومن يلق نظرة على صورة هذا الجسر ير وبإزالة هذه القنطرة من الطراز المعروف ب « البستم »

ثم يلي هذه القنطرة سمة ، قنطرة ثانية فتحتها ١١ متراً ، على شكل يقرب من نصف الدائرة . أما الثلاث الباقيات ففتحتهن أصغر من السابقة وهن على شكل أنصاف دوائر^(١) وطبيعي أن يؤدي هذا التفاوت في اتساع القناطر إلى ارتفاع وسط الجسر وانحدار جانبيه حتى يتساوى وسطح الأرض عند حافتي مجرى النهر

ويلاحظ المرء أن ثلاثاً من هذه القناطر شيدت على يسار^(٢) القنطرة الكبيرة - باعتبار مجرى النهر - وواحدة فقط على يمينها^(٣)

شيد الجسر العباسي من حجارة مزكّمة ، مختلفة الحجم ، قليلة الهندام ؛ لكنها مرتبة بنظام ، وقد تلاحت بعضها ببعض بالملاط القوي

(١) هذه القياسات مأخوذة من كتاب « برومر » المار الذكر

(٢) في هذه الجهة من النهر يشاهد الجبل المعروف ب « جبل يخين »

(٣) في هذه الجهة من النهر وعلى مقربة من الجسر قرية صغيرة تعرف

ب « الباسية » - على اسم الجسر

G. L. Bell : Amurath to Amurath. (2 nd ed., 1924 ; (١) p.289).

(٢) راجع مثلاً الرحلة السماة (p. 135) Form.Monte to Mosul.

من ذلك ما زعمه (همرتون) بقوله فيه إنه « جسر روماني
نغم مقفود فوق أحد روافد دجلة عند زاخو... وصار يعرف على
سما الأزمان بجسر الإسكندر^(١) » ؛ ثم ساق رواية دلالي
المارة الذكر

ونحن نرى في هذا الرأي تساهلاً كبيراً؛ إذ يصعب صمود
هذا الجسر مدة تزيد على الألف سنة يقاوم فيها عن الزمان
وتصرفات المياه

والذي انتهى إليه (بروسر) في درسه هذا الجسر أنه
لا شيء يوثق به فيما يخص تشييده؛ ومع ذلك فقد ذهب إلى أنه
شيد في المائة السابعة للهجرة (بين المائة الثانية عشرة والثالثة
عشرة للميلاد) ، وإنه بهذا الاعتبار من الآثار التاريخية الماثلة
للعمان التي تعود إلى أواخر أيام الدولة العباسية .

مباييل هواد

(بتداد)

J. A. Hammerton : Wonders of the Past. (Vol. 3., (١)
p. 1130).

السوار الذهبى بادياً للعيان ، ولكن من كانت تلك الفتاة يا ترى ؟
إنها كانت ابنة رئيس البنائين نفسه . ولكن هل لذلك الرئيس
من محيص وقد سبق السيف العذل والأهالي القاطنين تلك
البقعة أشعار وأغانى باللغة الكردية يتناقلونها صاغراً عن كابر
ويتلوونها في ذكر دلالي ، وفي عظم الفاجعة التي حلت بها ، وهذه
الأشعار ذات لون أدبي خاص ، وتعد من أجل القطع الأدبية
الشعبية

هذا ملخص الرواية الشائعة هناك رويناها دون أن نبدي
رأياً فيها ، لأن المراجع القديمة الموثوق بصحتها لا تساعدنا
في هذا الشأن

وقد ذهب فريق من الكتبة المحدثين إلى أن تشييد هذا الجسر
كان قد تم على أيدي الرومان ؛ فإن هؤلاء القوم اجتازوا بشمالى
العراق في المائة الرابعة قبل الميلاد وعبدوا مسالك عسكرية ومنها
الجسور لتمر عليها جيوشهم الجرارة الذاهبة لمنازلة الفرس

بعد يومين

أم كلثوم
تعود إليكم

بعد التعديل الجديد

سليمان نجيب - عباس فارس - إبراهيم حموده
منسى فهمى - عبد الوارث عسر - فؤاد الرشيدى
محمود رضا - حسن كامل - فردوس حسن
مارى منيب - نجمة ابراهيم - سامية فهمى

مع

في عيادة

تصوير : محمد عبد العظيم

إخراج : أحمد بدرخان

بسينما ستوديو مصر

٤ حفلات يومياً

ابتداء من ٢٠ سبتمبر